

« 2 |

آلان دو بوتون .. الفلسفة
حين تساعدنا على تغيير
حياتنا

« 3 |

آلان دو بوتون .. مؤسس
" مدرسة الحياة "

« 5-4 |

حوار مع آلان دو بوتون

« 7 |

آلان دو بوتون: كيف نجد
الهدوء في ظل الجائحة؟

آلان دو بوتون

آلان دو بوتون .. الفلسفة حين تساعدنا على تغيير حياتنا

د

يطلق عليه لقب فيلسوف مدرسة الحياة، فيما يصفه البعض بأنه صاحب فلسفة لن تصمد طويلاً، لكنه يدعونا أن نتمثل درس "سقراط" الذي ظل يطالبنا أن لا ننصت أبداً إلى إملاءات الرأي السائد، بل الإنصات إلى إملاءات العقل .

د

علي حسين

أحب الفلسفة التي تلقي بظلالها على الناس، والتي تخرج من جدران الجامعة لتتجول عبر مواقع التواصل الاجتماعي، وهو يتذكر كيف كان سارتر يكتب اصعب المؤلفات في المقاهي، ويدير اهم الحوارات بين شباب غاضب على المجتمع، ويؤمن ان مهمة الفلسفة أن تعلمنا كيف ينشأ الغضب عند الانسان، وما هي آلية الحب التي تسيطر عليه . فضل آلان دو بوتون ان يواجه القراء مباشرة من دون فدلسات ولا مصطلحات قاموسية، متمرداً على إملاء التقليد الفلسفي، لا ينكر ما يقال عنه انه يروج للفلسفة كطريقة لعيش الحياة وتقبل الموت يكتب: "احساسنا المفاجيء بالتعلق بالحياة حين ندرک الموت الوشيك يشير ربما الى أنه ربما لم يكن فقدان رغبتنا في الحياة طوال هذا الوقت بسبب عدم وجود نهاية منظورة، بل انها نسختنا اليومية منها .. بعد تخليتنا المعتاد بخلودنا، سيتم تذكرنا حينئذ بمجموعة الاحتمالات غير المجربة القابعة تحت سطح الوجود الذي يبدو خارجياً وغير مرغوب"، وهو يتذكر ما قرأه في واحدة من رسائل مارسيل بروس: "لم تكن بحاجة الى الكارثة لكي تحب الحياة. كان يكفي التفكير باننا بشر، وبأن الموت قد يأتي هذا المساء". يرى ان التشاؤم ربما يكون مصدر مهم للرضا النفسي، ورغم ان الفكرة يصفها البعض بانها مجنونة وغريبة، إلا ان دو بوتون يرى مثل فيلسوفه المفضل "سينيكا" بأن التفاؤل مصدر لخيبات الامل: "يعتمد شعورنا بالرضا في الحياة على توقعاتنا بشدة. فكلما زادت توقعاتنا، كلما زاد الحنق، ومشاعر المرارة، وخيبات الأمل، والشعور بالاضطهاد. تجتمع قوى كثيرة في مجتمعنا لتثير آمالنا بطريقة غير عادلة. بُنيت

إلى الفن، ليُضيء جوانباً بعيدة المنال لأرواحنا. وقبل كل شيء، نحن بحاجة إلى أن نتبنى أنفسنا خصلة التواضع، لتسهل علينا مهمة فهمنا لذواتنا".

في عام ٢٠٠٨، أسس آلان دو بوتون مدرسة الحياة. مقرها في لندن وباريس وأستردام وسيول واسطنبول وساو باولو وبرلين وزيوريخ وملبورن، تقدم مدرسة الحياة تعليماً يركز بشكل خاص على قضايا العمل والعلاقات وتروج للفلسفة باعتبارها طريقة مهمة لعيش الحياة، وهو يحاول ان يجيب على اسئلة ما هي الفلسفة؟ وهل الاهتمام بها مضيعة للوقت، من خلال كتب تسعى لخلق جسراً من التواصل الحميمي بين القارئ، وبين الأعمال الأدبية والفلسفية الخالدة. وهو لا يسعى لتقديم تحليل نظري ونقدي لهذه الكتب، وإنما يصر على نبش ما تحبته هذه الكتب بين اوراقها من اشياء ربما تفوت على القراء، كما انه لا يروج لهذه الكتب بطريقة تحمل فدلسات النقاد، وإنما يتبع المضمون الجوهرى لهذه المؤلفات، من اجل ان يعثر القارئ على طريقة سهلة وممتعة توصله إلى اكتشاف الدروس الإنسانية ويعلمنا طريقة الشغف بأدق تفاصيل حكايات الكتب ومؤلفيها

يخبرنا دو بوتون ان مدرسة الحياة "مهمتها بسيطة جدا وهي السعي في زيادة انتشار الذكاء العاطفي ك مفهوم بين الناس: "نطمح ان تساعد الفلسفة على مساعدتنا كثير في اكتساب الذكاء العاطفي في علاقاتنا، وأماكن أعمالنا، وفي الاقتصاديات، والثقافة".

يضع دو بوتون خمسة قواعد اساسية تسعى لها مدرسة الحياة، اولها ان نعرف ذاتنا، فهو يدرك ان الغرض من الفلسفة قد لخصه سقراط قبل اكثر من ٢٥٠٠ عام بعبارة واحدة "اعرف نفسك" يكتب: "نحن أحوج ما نكون إلى التشجيع لأن نتوحد مع أنفسنا بانتظام، وقبل كل شيء، نحن بحاجة إلى أن نتبنى أنفسنا خصلة التواضع، لتسهل علينا مهمة فهمنا لذواتنا. القاعدة الثانية تتلخص في فهم الآخرين، فقلما علينا ان نتوقع الكثير من الآخرين، فقلما أيضاً ان نتعلم ان السلوكيات الخاطئة تتبع دائماً من الألم والتوتر، لا من شرٍ يُصنَع لنا. نحتاج لتوجيه تعاطفنا وشحن خيالنا باتجاه أهداف لم نعتد عليها: أولئك الذين يحيطوننا أكثر"، ويرى دو بوتون ان القاعدة الثالثة في مدرسة الحياة هي في العلاقات والتي هي المصدر الوحيد والأكبر لسعادتنا ومعاناتنا في أن معنا: "تسعى شخص نبالده الصب على من العقوبة، وتبادلته الرغبة المتقدة، والالترام، والاهتمامات. نحلم بشخص يفهمنا، شخص نستطيع مشاركته الشوق والأسرار، شخص تكون معه على طبيعتنا كما يجب.

القاعدة الرابعة هي العمل الذي يجب من خلاله ان نخلق قيمة حقيقية من وظائفنا وإن يكون العمل ضمناً ذا مغزى وليس ترفاً: "نريد أن يجعل الناس بهارة وإقناع، وبالتالي، كيف يمكن أن تكون المجتمعات ناجحة ومثمرة"

القاعدة الخامسة وهي الثقافة والتي يقترح أن تكون ذات قيمة نظراً لقدرتها على تلبية احتياجاتنا من التعليم والتوجيه والتعزيزية وتكوين وجهات النظر والتشجيع والتصحيح: "يمكن أن الثقافة تساعدنا على إدارة المشاكل العادية من الحياة اليومية مثل الميل إلى الانزعاج غير المفيد مع الأشخاص الذين نحبهم، وفقدان المنظور فيما يتعلق بالمسائل البسيطة، والتخلي عن التعاطف مع الأشخاص الذين يستحقون في الواقع تعاطفنا، وأن نقسو على أنفسنا حينما نخطئ. ونحن نعتقد أن العالم حتى هذه اللحظة، لم يستغل الإمكانيات العلاجية الحقيقية للثقافة كما هو مطلوب ولا نتعلم كيفية الاستفادة منها بطريقة منهجية"

يجد دو بوتون بان مخالفة السائد هو مهمة الفلسفة الاولى وفي كتاب "عزاءات الفلسفة"، يستعين بسقراط للإشادة بالقدرة على مخالفة الآراء السائدة في أي عصر، بل ضرورة وأهمية ذلك في بعض الأحيان. يدعو دو بوتون من خلال هذا النموذج إلى عدم الانصياع لقوة الجماعة والعقائد المهيمنة على مجتمع ما في لحظة ما، والاحتكام بدلاً من ذلك إلى صوت العقل والضمير، حتى يبني المرء معتقدات فردية خاصة به دون أن يخشى الاصطدام بجدران المؤسسات والثوابت. غير أنه لا يذهب إلى حد التطرف في دعوته هذه، فيكتب: "يرينا الفيلسوف سقراط طريق النجاة من وهمين شديدين: أن ننصت دوماً، أو أن لا ننصت أبداً، إلى إملاءات الرأي السائد. ولكي نحدو حدوه، سنفوز حتماً لو سعيينا، بدلاً من هذا، إلى الإنصات دوماً إلى إملاءات العقل".

زمن وسائل الاتصال الحديثة، ان تقدم لنا حلولاً لمشكلات وتساؤلات تمس وضعه الراهن في حياته اليومية، كما انها تساعدنا او تقدم لنا العزاء من خلال استعراض مواقف انسانية مر بها هؤلاء الفلاسفة .

آلان دو بوتون المولود في سويسرا عام ١٩٦٩، لآب ولد في الاسكندرية بمصر، وغادرها بعد عام ١٩٥٢ ليؤسس شركة استثمار في سويسرا، يخبرنا انه كان على خلاف مستمر مع والده الذي اراد منه ان يصبح رجل اعمال، يقول في حوار ترجمه الى العربية حنان العلياني: "عندما بعث أفضل الكتب مبيعا كان الامر بالنسبة لوالدي اشبه بالسخرية لم يكن يجب بما افعله وتساءل عما سأفعله بنفسي"، قرر ان يصبح مؤلفاً للكتب منذ اللحظة الاولى التي قرأ فيها للكتاب الفرنسي رولان بارت: "لم أكن سأصبح ما أنا عليه الآن لو أنني لم أكتشف في بدايات العشرينيات من عمري أعمال الفرنسي رولان بارت، كان بارت مبتكراً في أسلوبه وفي عرض مؤلفاته" وسيقرر بعد ان تعرف على مؤلفات بارت ان يدخل عالم الفلسفة، فما ان انتهى من قراءة كتاب رولان بارت "شذرات من خطاب محب" حتى وجد المخطط الذي سيضع من خلاله كتابه الاول عن الحب، وستكون دراسة بارت عن صمويل بيكت مدخلاً لان يقدم الان دو بوتون كتابه "كيف غير بروس حياتك": "لم يكن التأثير على مستوى الأفكار بقدر ما كان على مستوى الأسلوب والنهج الذي اتبعه. لم يكن يتصور ان كتبه ستصبح على قائمة الأكثر مبيعا"

في طفولته درس في مدرسة داخلية باكسفورد، يصف نفسه بأنه كان طفلاً خجولاً، قرأ كتب التاريخ والفلسفة والادب عام ١٩٩١ بدأ دراسته للحصول على الدكتوراه في الفلسفة الفرنسية، لكنه فجأة ترك الدراسة ليتفرغ لتأليف كتب تقرب الادب والفلسفة لعامة الناس .

عام ١٩٩٣ يصدر اول كتبه بعنوان "مقالات في الحب"، بعدها يدخل عام ١٩٩٦، عالم الشهرة بكتابه "كيف يمكن لبروست أن يغير حياتك؟" الذي بيع منه اكثر من مليون نسخة - ترجمه الى العربية زين الحاج - بعدها تولى كتبه وكان اشهرها "عزاءات الفلسفة، وكتاب "قلق المكانة" - ترجمه الى العربية محمد عبد النبي - فضلاً عن كتب عديدة تناولت موضوعات الجنس والحب والدين والسعادة والفن

في عزاءات الفلسفة يقترح آلان دو بوتون من مقولة سقراط الشهيرة "اعرف نفسك"، حيث يعتقد دو بوتون ان هذه العبارة هي تلخيص لحياتنا وايضا تمثل قدرتنا على معرفة الذات، ويؤمن ان أحد مهام الثقافة أن تعرض لنا الوسائل التي تساعدنا في مهمة معرفة ذاتنا: "نحن أحوج

إلى مفردات لنصوغ بها مشاعر وحالات ذهنية نمر بها، نحن أحوج ما نكون إلى التشجيع لأن نتوحد مع أنفسنا بانتظام، نحن أحوج ما نكون إلى الأصدقاء والمتخصصين، الذي يستمعون إلينا بتعاطف وبدقة عالية، ونحن أحوج ما نكون



آلان دو بوتون .. مؤسس " مدرسة الحياة "

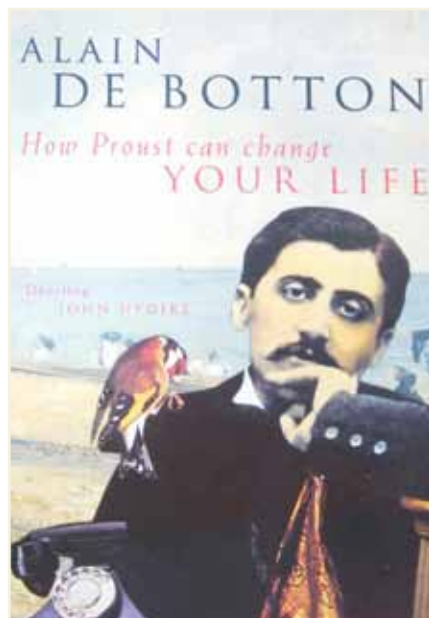
دد

يرى أبيقور الفيلسوف اليوناني أن دور الفلسفة هو إغاثة وإرشاد الأفراد وهم يبحثون عن السعادة الحقة، وعن ذلك قال "كما لا يكون للطب أي نفع عندما لا يتخلص من العلة الجسدية، ستكون الفلسفة غير ذات نفع إن لم تتخلص من معاناة العقل". لكن أطروحة أبيقور هذه لم تعد ذات شأن في هذا العصر، بعد أن أضحت الفلسفة أقل شأنا مما كانت عليه في سالف الأزمان والحقب، فالكل بات منخرط في دوامة الحياة اليومية، بما تفرضه من إيقاع خاص له نسق تفكري معين، قضي على التنوع الفكري الذي يعد حاضنة للأسئلة الفلسفية.

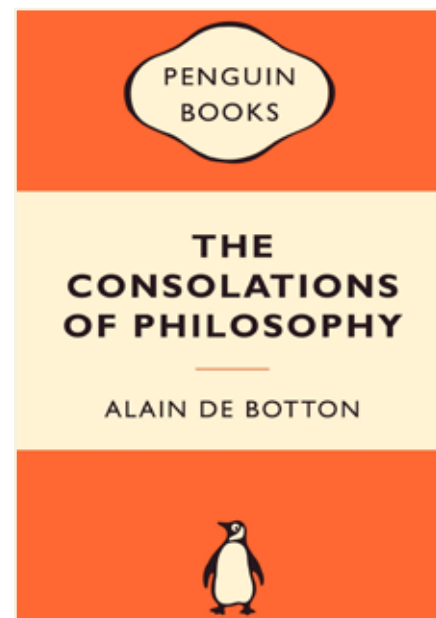


براعة في ضمان النتائج الجيدة التي يحاول كل من المتفائل والمتشائم الحصول عليها في النهاية. استعرض هذا الفيلسوف - في كتابه النظرية "كيف يمكن لبروست أن يغير حياتك؟" (1997) عن هذا الروائي الفرنسي المعروف بصعوبة أسلوبه وتعدد عالمه - تسعة دروس إنسانية مهمة استقاها من حياة وسيرة مارسيل بروست. جاءت على غرار عنوان الكتاب في صيغة سؤال، من بينها؛ "الدرس الثاني: كيف تقرأ ذاتك؛" "الدرس الثالث: كيف تأخذ وقتك؛" "الدرس الرابع: كيف تعاني بنجاح؛" "الدرس السابع: كيف تفتح عينيك؛" "الدرس التاسع: كيف تقلل من أهمية الكتب؛" كتب وحاضر وساجل دو بوتون كثيرا عن الحب، فأول مؤلفاته التي تعود إلى عام 1993 كانت عبارة عن رواية، اختار لها عنوان "مقالات في الحب"؛ تحولت في سنة 2010 إلى فيلم سينمائي، ثم عاد إلى الموضوع مجددا، قبل ثلاث سنوات خلت، فأصدر كتاب "دورة الحب" (2016)، وتبقى الخلاصة ذاتها هي أن "الحب مهارة"، وليس غريزة أو مشاعر حماسية قد تخالجنها. يجد القارئ المتخصص والعادي نفسه في كتابات هذا الفيلسوف - الذي لا يدعي أنه يقدم أعمالا أكاديمية عميقة، بقدر ما يحاول اجترار أفق جديد للكتابة - يقوم على النبش في صفحات تراث فلسفي إنساني كبير، ضاع كثير من جواهره وكنوزه بين تعقيدات وطلاسم النخبة وتجاهل الجمهور والعوام، وبث الروح فيه من خلال ربطه بمعضلات ومشكلات الحياة المعاصرة. هذا ما ظهر بجلاء في كتابه "عزاءات الفلسفة" (2000) حيث قدم للقارئ العادي كيف يمكن للفلسفة - هذا العلم الإنساني الذي يكاد يصبح من الحفريات أو مادة مثيرة للسخرية - أن تقدم له حلولاً عملية لمشكلات وتساؤلات، تلمس وضعه الراهن في حياته اليومية، وما أنواع العزاء؛ أو تهوين الأثقال، التي قد يفرها بعض كبار الفلاسفة. وأيضا في كتاب لا يقل أهمية، لنا عودة إليه قريبا - في صفحات "الاقتصادية" - بعنوان "قلق السعي إلى المكانة" (2004) الذي يكشف فيه حقائق مثيرة عن القلق الجماعي المزمع في تسلسل السلم الاجتماعي، وما يرتبط بذلك من اضطرابات، وتأثيره في تشكيل الصور الاجتماعية لديها

في المجالات المادية والتكنولوجية مع الركود النفسي. فنحن أقل حكمة من السومريين، ومختصين في تغيير أماكن إقامتنا. يعزى هذا الأمر بحسب صاحب بيان السعادة (2006) إلى التعريف الجزئي الذي نستخدمه للذكاء، فهو من دون تمييز بين معان كثيرة أخرى، اعتقاد مفاده جمع الشهادات من جامعات مرموقة، والبراعة في حل المشكلات التقنية والتحديات التجارية. من جملة موافقه الفريدة، ما عبر عنه في محاضرة له "عن التشاؤم"، حين أكد أن التفاؤل مصدر الغضب وخيبات الأمل. فالمتفائل يعتقد أن العالم يجب أن يكون مثاليا وخاليا من البؤس وما إلى ذلك، بناء على هذا المعتقد، يرى أن التفاؤل غير صحي، لذا ينبغي تجنبه قدر الإمكان لنحظى بحياة جيدة. في المقابل يرى أن التشاؤم أمر صحي وجيد، فالمتفائل والمتشائم كلاهما يتمنى أن تأخذ الأمور في الحياة منحى جيدا على قدم المساواة، بيد أن الإدراك بأن الأمور قد تسوء، يجعل المتشائم أكثر



حتى أضحت بالنسبة إلى أغلبنا عادية ومألوفة، فيما هي عكس ذلك في ميزان النقد الفلسفي لدى فيلسوف الحياة اليومية. فالتعليم عنده صمم لتحصيلنا من نقيصتين اثنتين: أننا لا نعيش فترة طويلة، تمكننا من معرفة كل ما يجب علينا معرفته في هذه الحياة، والثانية أن كل فرد منا يتسم بالغباء إلى حد ما. لكن هذا لم يدفع الأفراد نحو مراجعة مواقفهم بهذا الشأن، فبحسب مؤلف "مباهج العمل" (2009) "ما زلنا انتقائيين في المجالات التي نرغب في تنقيف أنفسنا فيها. فنحن - على سبيل المثال - نقلق قلقا بالغا على من يدرس أبناءنا مادة الرياضيات، ولا نلقي بالا لمدى جاهزيتهم للتأقلم مع الحياة أو التوتر". ما يعني أن طاقنا موجهة في الأساس إلى الأسئلة المادية والعلمية والتقنية، لا إلى الأسئلة النفسية والعاطفية. هذا التحيز المستمر والمتزايد عبر التاريخ البشري أثقل كاهلنا، حيث تزامن التقدم الإنساني الاستثنائي



محمد طيفوري

في هذا الخضم، برزت إلى الواجهة أسماء تحاول قدر المستطاع - كل من زاوية نظر خاصة - إعادة الاعتبار للفلسفة، بتقريبها إلى التداول اليومي للأفراد، وبعث الحياة في المقولة الأبيقورية. رغم ما لقيه هذا الفصيل "بارت، فيري، سبونفيل، أونفري... من نقد وتهجم، واتهام بالشعبوية والتهرج، واللهث وراء منطق السوق والإعلام؛ أي الخضوع لمبدأ "ما يطلبه الجمهور". آلان دو بوتون فيلسوف بريطاني معاصر ينتمي إلى هذه المدرسة، ويظهر ذلك من خلال النقاشات التي تثيرها مؤلفاته بشأن القضايا المعاصرة، كما شارك عام 2008 في تأسيس مؤسسة عالمية، أطلق عليها اسم "مدرسة الحياة School of life"، تهدف إلى تطوير الذكاء العاطفي، وإعمال السيكولوجيا والفلسفة والثقافة في الحياة اليومية. باختصار توجيه المعرفة إلى الحياة، لا المعرفة إلى غاية المعرفة ذاتها. تبدو كتابات دو بوتون لأول وهلة أقرب ما تكون إلى أفكار مدربي التنمية البشرية، ممن يقدمون إلى زبائنهم حلولاً سحرية، وعلبا جاهزة من التحفيز الذاتي، تصلح أن تكون حلالا لكل الحالات والأوضاع والقضايا والمشكلات. لكن الإبحار في صفحات ما يكتبه الرجل يظهر أنه فضل الوقوف إلى جانب الإبداع والفردية والخروج عن الإجماع، فاختر طريقا صعبا، حيث يعمل في مسارين يبدو أن ظاهرهما على الأقل - متناقضين. فهو يعيد إنتاج واستكشاف المعرفة الإنسانية الرفيعة في الفلسفة والأدب، ويعمل على صياغة ما استخرجه من رحلاته تلك في صورة مركزة ومبسطة للأذهان والأفهام. لا يسعى مؤلف "الفن كعلاج" (2013) إلى تقديم أجوبة قطعية وحلول جاهزة لما يثيره من أسئلة وإشكالات بقصد تجاوز عقبات ومطبات الحياة، بقدر ما يرسم خريطة طريق، يضع ضمنها معضلات حياتنا المعاصرة في سياقها الإنساني الأشمل، ويرصد تطورها عبر أزمنة وأماكن متباينة، ما يساعد القارئ على تحديد صورة أوضح وأدق للمفهوم أو المشكلة التي يتم تناولها، ويعينه على إبداع نظراته الخاصة بناء على هذا الإلمام. بين الفينة والأخرى، يصدم قراءه بمواقفه النقدية الحادة تجاه قناعات وظواهر ومواقف تطبعنا معها،

دد

سخر ضيف هذه الحلقة - آلان دو بوتون - نفسه للإجابة على سؤال واحد ورئيسي: كيف نعيش حياة جيدة؟ ضيفنا هو مؤسس "مدرسة الحياة، وهي مؤسسة عالمية تهدف إلى تطوير الذكاء العاطفي، كما تهدف إلى التطبيق العملي للسلوكيات، والفلسفة، والثقافة في حياتنا اليومية. يتميز ضيفنا في كتبه ومقالاته ومحاضراته بأسلوبه السهل والممتع، وهو ما خلق له جمهوراً عريضاً من القراء، وقد سبق وأن تُرجمت بعض أعماله إلى العربية مثل كتابي عزاءات الفلسفة وكيف يمكن لبروست أن يغير حياتك، كما تُرجمت أشهر مقالاته لم ستزوج الشخص الخطأ على حكمة. آلان دو بوتون، يسعدني أن أرحب بك ضيفاً على حكمة في حوار لعله الأول لك عربياً.

حول العلاقة بين الحب، والزواج، والألم

حوار مع آلان دو بوتون

ترجمة: حنان العلياني

- من الفيلسوف الذي كان له الأثر الأكبر على آلان دو بوتون؟ ولماذا؟

لم أكن سأصبح ما أنا عليه الآن لو أنني لم أكتشف في بدايات العشرينات من عمري أعمال الأكاديمي وكاتب المقالات الفرنسي رولان بارت. كثيراً ما أحسست بالارتباك تجاه حنيني للكتابة في سنوات دراستي الجامعية، ولم يكن لدي تصور عما سأصبح عليه ككاتب، فلم يمر علي حينها ما يمكن أن يقدم لي الشجاعة للشروع في الكتابة. لم أكن متحمساً كفاية للروايات، ولم أكن قادراً على أن أقصص حكاية واحدة، ولكن الروايات الواقعية التي عرفتتها آنذاك، كانت موضوعية ولا تخبر اهتمام القارئ أو شيئاً من هذا القبيل، أما المذكرات، فكانت تفتقر إلى الأساس الفكري الذي لطالما احتجت إليه. ثم ما لبثت أن اكتشفت هذا الكاتب الفرنسي رولان بارت، الذي جعلني أتعلّم طريقة جديدة في الكتابة الواقعية. كانت جُل أعماله حول الأشياء الأكثر من عادية، كمسحوق الغسيل وبرج إيفل والوقوع في الحب والتنانير ذات الأطراف القصيرة والطويلة وصور والدته. ولكن في نفس الوقت، كان له تأثير على هذه المواضيع حينما استحضرت التعليم التقليدي والعقلية الفلسفية. عرف بارت كيف يربط بين الكاتب المسرحي جان راسين والعطل الصيفيّة، وبين المفكر فرويد وترقب مهانفة

- تروّج حضرتك للفلسفة كطريقة لعيش الحياة وتقبل الموت. تعني الحياة الكريمة في عصر العولمة والاقتصاد المالي أشياءً مختلفة على غرار: معرفة معلومات وبيانات أكثر، وأن تكون خبيراً بشيء ما. ونجد الفلاسفة في المقابل لا يتفقون على أي شيء، وهذه هي ماهية الفلسفة، وعليه قد يقول قائل أن الفلسفة ليست إلا مضيعة للوقت، فما هو تعليقك؟

أؤمن بمبدأ التعليم العاطفي، حيث يصمم التعليم لتحسيننا من نقيصتين اثنتين. الأولى: أننا لا نعيش فترة طويلة تمكننا من معرفة كل ما يجب علينا معرفته في هذه الحياة، والثانية: أن كل فرد منا يتسم بالغباء إلى حد ما. ولكننا - نظرياً على الأقل وبفضل التعليم - نستطيع في غضون سنوات قليلة أن نبني مخزوننا من الرؤى التي تتطلب من العباقرة سنيناً للحصول عليها. ثمرة آلاف من السنين من التفكير المتبحر في علم من العلوم قابل للاختزال في مجموعة كتب في غضون ساعات معدودة. يساهم النظام التعليمي في الفائدة الجماعية بخلق لحظات وامضة من الذكاء الفردي، فيساهم في استقرار الذروة لعقولنا الفوضوية والصفيقة، وإطالة نجاتها في فترة العمر الافتراضي الواحد إلى ما لانهاية. فهي تسمح للغباء أن يخصص محصل النبوغ، فالتعليم يسمح لنا بأن نحظى بحياة تتمتع فيها بذكاء أكثر مما نحن عليه. فغالبيتنا - كل على حدة - لسنا بأذكى من بقرة أو طائر، ولكن على عكس الحيوانات، نمتلك القدرة على

الحيب. حيث لفتت أعماله البؤن الشاسع بين طرفي النقيض التي اتسمت بها أعمال أغلب الفنانين المعاصرين أمثال الشاعر الأيرلندي جيمس جويس ونظيره صمويل بيكيت، والفنان مارسيل دوشامب ونظيره جوزيف كورنيل. تميز بارت بنظرته الثاقبة لرؤية أدق التفاصيل في المواضيع العميقة. كان بارت مبتكراً في أسلوبه وفي عرض مؤلفاته كغيره من الفنانين المعاصرين (توزعت أعماله بين البنيوية وما بعد البنيوية)، حيث حملت كتبه الكثير من الصور، والتلاعب بالخطوط المختلفة. كتب بارت كتاباً كاملاً بعنوان: س/ن، والذي تمحور حول قصة قصيرة - لبلزك، والتي تميزت بتحليل كل سطر بطريقة لاتخلو من الهوس والتدقيق الموسوعي. لكن كتاباته لم تخلو من الحس التقليدي المتسم بالاتزان وضبط النفس. مشى بارت على خطى "الأخلاقين" الفرنسيين (والذين لم أسمع بهم من قبل إلا من كتابات بارت)، أمثال الحكيم الفرنسي فرانسوا دي لا روش فوكولد وميشيل دي مونتيني (رائد المقالة الحديثة) والأديب الفرنسي جان دي لا برويير والكاتب الفرنسي نيقولا شامفور. ألهمني كتب بارت التي تلت هذا الكتاب وحتى آخر كتاب له، فكتاب "شذرات من خطاب محب" ساعدني في تشكيل ملامح كتابي الأول في موضوع الحب. وماكتبه عن راسين و بيكيت بوصفهم آباءاً روحيين لكتاب "كيف غير بروست حياتك"، فالتأثير لم يكن على مستوى الأفكار بقدر ما كان على مستوى الأسلوب والنهج الذي اتبعه.

التعلّم من الأذى في القطع. فيشفع لنا أننا بين الفترة والأخرى نرتاد للذهاب إلى المدرسة. ولكن السؤال هو: ماهي المدارس الموجودة؟ فلدينا مدارس لتعليم الطيران وجراحة الأعصاب والهندسة المالية وإدارة التوريد، فنحن قادرون على تعليم خصائص البلوتونيوم والمبادئ الكهرومغناطيسية، ونملك معلومات عن جسيمات البنتا كواركات ونظرية الكروموديناميكا الكمومية. ولكننا مازلنا انتقائيين في المجالات التي نرغب بتتقن أنفسنا فيها، فنحن نقلق قلماً بالغا على من يدرس أبناءنا مادة الرياضيات، ولا نلقي بالاً لدى جاهزيتهم للتأقلم مع الحياة الزوجية أو التوتر. فطاقاتنا موجهة للأسئلة المادية والعلمية والتقنية، لا إلى الأسئلة النفسية والعاطفية.

نتعلّم الكثير في المدارس وفي فصولنا الدراسية عن الصفائح التكتونية، وتكون السحب، ولا نتعلّم ما يكفي عن كيف ينشأ الغضب أو آلية الحب، ونعلم الكثير عن خصائص السبائك المعدنية، والقليل عن الحسد والشعور بالذنب. فكما لو أننا نعتقد ضمناً بأن الإدراك العاطفي في جوهره شيء غير قابل للتعلّم، وبعيد كل البعد عن المنطق والمنهجية. وعليه فإننا نجد أنفسنا ننخد الغريزة الفردية والحدس. إننا نترك الجميع يبحثون في مناهة مشاعرهم على طريقتهم الخاصة، وكخطوة قوية وحكيمة، أقترح أن يُعيد كل جيل اكتشاف قوانين الفيزياء بمقردهم. تحببنا أنقل كاهلنا: تزامن التقدم الاستثنائي في المجالات المادية



يعانون من الوحدة؛ وعجباً نجد أنفسنا محاطين بالرفقاء. الشعور بالوحدة الدائمة والثابتة أفضل بكل المعاناة مع التنزلات في مجتمع كاذب غالباً فالوحدة بكل بساطة ثمن قد ندفعه لتمسكنا بأرائنا الصادقة والطموحة لما يجب على الرفقة أن تكون عليه.

- ذكرت أن الحب يعني أن تكشف عن مساوئ الشركاء، وأن تُعطي أفضل التفسيرات بسخاء لما قد يُصْرَحون به. فكيف تحصل على هذا، بينما نحن في حقيقتنا كأنتات خطيرة؟

يتصرف الأطفال الصغار بطريقة غير عادلة وصادمة بصورة متخيرة في بعض الأحيان؛ يصرخون على من يعنيتهم بهم، يدفعون بغضب عارم وعاء من المعرونة ذات الأشكال الطريفة، ويرمون شيئاً جليته للتو لهم. لكننا نادراً ما نشعر بالاستياء أو الجرح بسبب تصرفهم. السبب في ذلك أننا لا نفترض في الأطفال الصغار الدافع السلبي، أو النية السيئة. نتوصل إلى التفسيرات التي تؤكد على خيريتهم. لا نعتقد بأنهم يفعلون ذلك مجرد اغضابنا. نفترض بأن سبب ذلك أنهم يشعرون بالتعب، أو يعانون من لثة متورمة، أو أنهم غاضبون بسبب ولادة فرد جديد في العائلة. لدينا مخزون هائل من التفسيرات البديلة والجاهزة في أذهاننا، ولا يقودنا سبب واحد من هذه الأسباب إلى الذعر أو الاحتياج بصورة رهيبه. هذا على عكس ما يحصل مع البالغين بالمجمل، ومع من نحبتهم على وجه الخصوص. ها نحن ألاء نتخيل أن الآخرين يتقصدوننا بأفعالهم. حينما يتأخر الشريك عن عيد ميلاد أمنا بسبب العمل، نفترض أنهم يتحججون بذلك. إذا وعدونا بأن يتأعوا لنا معجون أسنان إضافي ثم نسوا ذلك، فإننا نفترض أنهم تعمدوا ذلك. ربما يتلذذون بفكرة أن يتسببوا لنا بقليل من الضيق. لكن لو طلقنا التفسير الذي نجحنا إليه في حالة الأطفال، سيكون أول افتراض يتبادر لأذهاننا مختلفاً جداً: ربما لم يحظوا بقسط من النوم الليلة الفائتة، ولا يفكرون بطريقة واضحة بسبب الاجتهاد، وربما يعانون من ألم في الركبة، وربما يقومون بعمل ما يعادل اختبار حدود التسامح الأنوي.

لا يصبح سلوك البالغين لطيفاً أو مقبولاً بطريقة سحرية من وجهة النظر هذه، ولكن نرجح الانزعاج تبقى في حدود ضئيلة. إنه لأمر مثير أننا نعيش في عالم نتعلم فيه كيف نكون لطيفين مع الأطفال؛ فحتماً سيكون لطيفاً أكثر أن نضحك كرماء تجاه الجانب الطفولي في داخل كل واحد منا. ليست مرحلة البلوغ مرحلة يبلغ مداها منتهاهها؛ فما نسميه الطفولة (تبقى مغمورة ولكن مهمة) في حياتنا، لذلك فإن بعض من الممارسات التي نغفلها بسهولة نسبياً مع الأطفال، يجب أن تستمر للأبد، لتكون ذات صلة عندما نتعامل مع الكبار. إن إعادة التصور التصحيحية، والدقيقة، في داخل حيوات الآخرين، جزء من التفكير التعاطفي الذي نحتاجه باستمرار للقيام به مع من حولنا. نحن بحاجة إلى تخيل الاضطراب، وخيبة الأمل، والقلق، والارتباك الهائل في الناس الذين قد يبدو عليهم ظاهرياً العدوانية واللؤم. حينما ننظر إلى بعض أخطاء الرفقاء كما نُنظرنا لأخطاء الأطفال، فإننا نفعل لهم صنيعاً. نذكر تماماً بأن النظر لنصرفاتنا وكأننا أصغر مما نحن عليه يتم عن مزاغة، وننسى أحياناً أن الإمتياز الكبير الذي يمكن أن يحظى به أي شخص هو أن تكون النظرة له أبعد من أنه شخص بالغ للتعامل مع -

مسامحة- الإخفاقات، أو الغضب، أو العجز عن التعبير عن الذات، أو الجرح في ذلك الطفل الذي بداخله.

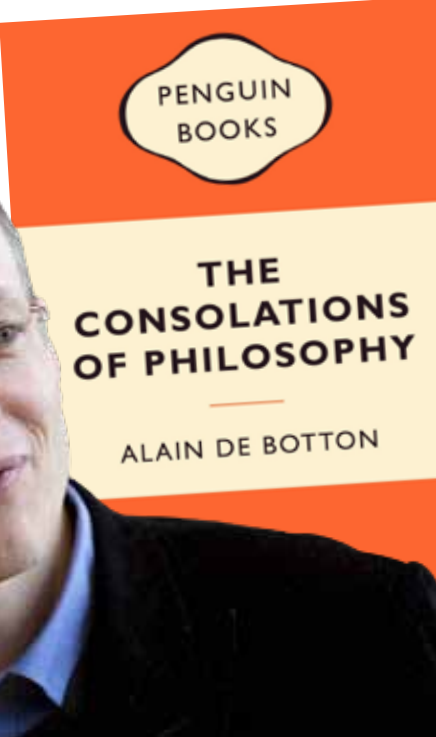
عن موقع الحكمة

ولون العينين الجذابتين. وبالرغم من كل ما قيل، من المفترض ألا تكون متوجسين أو مرتبكين بسبب هذه الوحدة المنتشرة. فالكاتب الألماني "غوته" والذي حظي بالكثير من الأصدقاء في حياته، ثارت ثائثرته في لحظة غضب قبيل وفاته وقال: "لم يفهمني أحد قط كما ينبغي، ولم أفهم أحداً كما ينبغي، ولم يفهم أي أحد أي شخص آخر". ثورة غضبه كانت مفيدة، خصوصاً من رجل عظيم ك"غوته".

وجود درجة من التباعد بين الشخصيات وحالة الالتفاهم المتبادلة ليست علامة على أن الحياة سلكت بنا مسلكاً خاطئاً، فهذا ليس خطئنا، بل كان حرياً بنا أن نتوقعه باديء ذي بدء، وحينما نفعل ذلك سنتهل علينا الفوائد:

عندما نتقبل حالة الوحدة، فإننا نصبح مُبدعين، فعلى سبيل المثال: تلهمنا الوحدة لكتابة رسالة ووضعها في قارورة، والوحدة تدفعنا للغناء ولكتابة الشعر ولتأليف الكتب والمدونات. هذه النشاطات تنبثق من إدراكنا بأن الأشخاص حولنا لم يفهمونا بصورة أفضل، قد يكون هناك من يمكنه أن يفهمنا، ولكن يفصل بيننا وبينهم عوائق الزمان والمكان. يُعد التاريخ الفني سجل للناس الذين لم يحظوا بفرصة تواجد من يتجاذبون معهم أطراف الحديث بالقرب منهم، فيمكننا استخراج رموز الحميمية في ثنايا كلمات الشاعر الروماني الذي وافته المنية في السنة العاشرة قبل الميلاد، أو في كلمات المغني الذي يصف حالة الشجن التي نمر بها في تسجيل قديم من عام 1963 في مدينة ناشفيل. تخلق الوحدة في دواخلنا أشخاصاً قادرين على اقتناص الفرصة المناسبة لعلاقة حميمية، فيما لو حصلت تلك الفرصة، فهي تعمق الأحاديث التي نحظى بها مع أنفسنا. فالوحدة تضفي على شخصياتنا خصيصاً فتميزها، فلا نجتزأ أراء ليست لنا، بل نطور أراءنا الخاصة. قد نكون معزولين حالياً، ولكننا أقرب بكثير من أن نحظى بروابط مثيرة لإهتمامنا مع أي شخص نخده في نهاية المطاف.

حتى الناس الذين يعتقد بأنهم لا يعانون من الوحدة، هم وحيدون في الحقيقة. فأولئك الذين لا تفارق البسمة محياتهم في الوقت الحاضر، سيأتونك في أحلك أوقات حياتهم بعد تعاقب السنين قائلين بأنهم يشعرون على الدوام بأن الآخرين لا يفهمونهم فهما كاملاً. الصداقة القريبة والتي اتسمت بالرحم في أغلب لحظاتها ليست دليلاً على أنهم وجدوا ضالعتهم، بل هي دليل على اليأس الممتد الذي يجعلهم يخفون حقيقة وحدتهم غير القابلة للإصلاح. يورثنا شعور الوحدة شعوراً رائعاً ومغريباً بطريقة غريبة، فيوحى لنا بأننا أكثر من مجرد أنماط عادية تستوعبها التعميمات الاجتماعية، ولا شك في أن ذلك مدعاة للخسر، والإحساس بالعزلة في الحقيقة كما نُنظر - شعور يمننا من أن نشعر بخوف من الغطسة- دليل عمق في شخصية الإنسان. فعندما نعتز بشعورنا بالوحدة، فنحن نوق على عضويتنا لنادي يضم أناساً نعرفنا عليهم من خلال رسومات ادوارد هوبر وقصائد الشاعر شارل بولديير وأغاني ليونارد كوهين. يمكننا أن نلج تجربة عظيمة وطويلة كاشخاص



الحقيقة الجلية هي أن أقصى درجات الوحدة هي جزء لا يمكن تغييره من تكوين الإنسان الأساس والذي، هي صفة أساسية في الوجود المعقد للإنسان وتكوينه، ولهذا عدة أسباب جوهرية:

اعتراف وإقرار الآخرين باحتياجاتنا - مع أننا نشعر بالراحة لمشاركة غالبية هذه الاحتياجات، سيكون مزجاً للمجتمع ككل. فكثير من الأفكار القابعة في خبايا عقولنا غريبة أو متناقضة أو حاذقة أو مثيرة لدرجة أننا لا نشعر بالامان للإفصاح عنها لأي شخص آخر. لذا نجد أنفسنا بين خيارين أو وهما: إما أن نكون صادقين مع أنفسنا، أو نكون مقبولين من الآخرين، ولعلنا ننفهم اختيارنا للخيار الأخير. يتطلب الاستماع لتجارب حياة الآخرين جهداً لا يستهان به لكي يتمكن المستمع من التعاطف مع ما يمررون به من تجارب، ولا ينبغي لوم الآخرين على فشلهم في التوصل لفهم عميق لذواتنا، فلعلهم يريدون الالتقاء بنا، ولكن يجب أن نتقبل الجهد الذي يبذلونه للحفاظ على أن تكون حياتهم هي محور الحديث معهم. سنرحل عن هذه الدنيا وحيدين، مما يعني أن ألامنا في هذه الحياة نتحللها وحدنا، وبالرغم من وجود من يشجعنا في هذه الحياة، إلا أننا نجتز وحيدين في المحيط ونجابه الغرق في الأمواج العاتية، ومهما بلغت لطافة الآخرين، فإنهم سيلوحدون بكل هدوء من شاطئ الأمان. من المستبعد جداً أن نجد شخصاً تتوافق أرواحنا معه تماماً، على الرغم من توقنا للانسجام الكامل مع هذه الروح، سنجد تناقضاً مستمراً، لأننا وجدنا على ظهر البسيطة في أوقات مختلفة، فنحن ثمة لاختلاف العائلات والتجارب والخلفيات الثقافية، فلن نتفق جميعاً على رأي واحد إذا شاهدنا نفس الفيلم، ولن نتشارك نفس الأفكار حينما ترتفع أعيننا للسماء المزينة بالنجوم، فقد تتدفق من أحدينا مشاعر فياضة، وقد تستثار مشاعر الشجن والحزن في نفوس بعضنا لإسترجاعهم تفاصيل مؤلمة عن حياتهم الخاصة، الأمر فعلاً مُحير لدرجة الفكاهة. لن نجد الأشخاص المناسبين لفهموننا على الأغلب، ولكنهم متواجدون حولنا وإن لم تسنح لنا الفرصة لتلقيهم، فلعنا مررنا بهم في الشارع، حتى وإن لم يكن لدينا أدنى فكرة عن إمكانية التواصل معهم، وربما أخذهم الموت قبل أسبوعين في مدينة بعيدة، أو لم يكتب لهم أن يُخلقوا إلا في القرن الثاني والعشرين، فهذه ليست مؤامرة، ولكننا نحتاج جرعة حظ زائدة لتتواجد معهم.

وقد يزيد الطين بلة لو كنا أشخاصاً عميقي التفكير وحادي التبصر، فتقل إمكانية وجود أشخاص متسقين ونواتنا. ليست تلك بالأسطورة الرومانسية القائلة بأن الوحدة هي الضريبة التي يتعين علينا دفعها للكفر عن الغموض والتعقيد الذي يكتنف عقولنا؟

فمنذ زمن بعيد، كانت الرغبة العارمة في أن يحظى البشر بعلاقة حميمية أقوى من الرغبة في خلق حديث مثير، فبنتهي الأمر بنا أن نجد أنفسنا مجازيرين بعلاقات مع أشخاص لا نجد الكثير لنقولهم لهم مجرد أننا كنا مهتمين بشكل الأنف

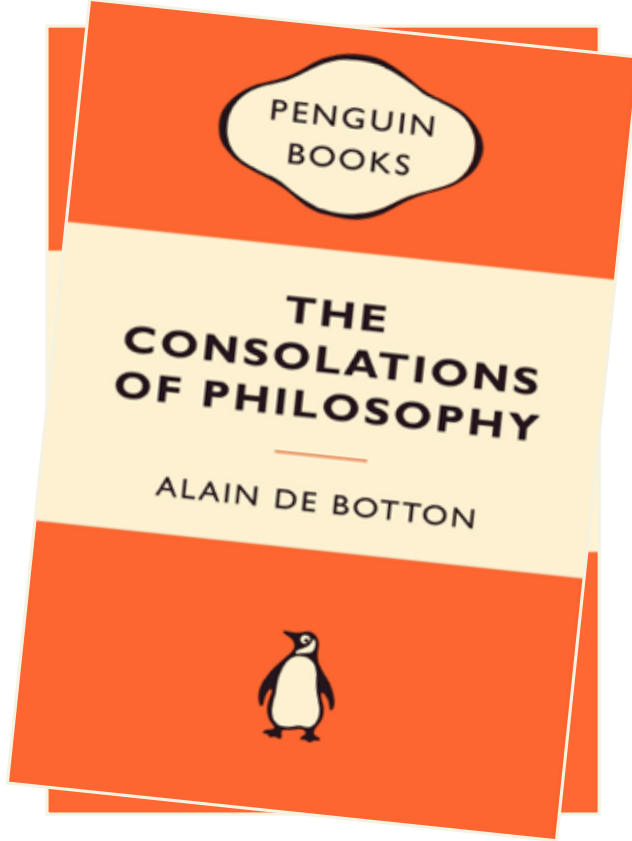
والتكنولوجيا مع الركود النفسي. فنحن أقل حكماً من السومريين، وخبراء في تغيير أماكن إقامتنا، بينما نبقى مبتدئين في استخدام وظائفنا الذهنية. حوزتنا تقنية الحضارات المتقدمة على المستوى العاطفي التي لم تتغير من عصر الكهوف. إننا قادرون على التنقل في الكون بسرعة أسرع من الصوت، ونعاني في التعامل مع المحتوى الجامح في الفص الأمامي من أدمغتنا. نمتلك الشهية والغضب المدمر في الكائنات الرئيسية البدائية والمتمثلة في امتلاك الرؤوس النووية. تعريفنا لمفهوم الذكاء سبب لذلك جزئياً، حيث استخدمت من دون تمييز بين معانيها الكثيرة وغير المتوافقة، فنميل للاعتقاد بأن الذكاء الحقيقي قد يعني شيئاً من قبيل جمع الشهادات من جامعات مرموقة، والبراعة في حل المشاكل التقنية والتحديات التجارية. نثور ضد بعض حدود تصنيفاتنا، فنلاحظ فيما نصفه بالحيوات الذكية أنواعاً من الحماقة القوية والمستمرة والمتسقة جنباً إلى جنب بطريقة اعتيادية، وتحثفي بأشكال من الأملية. فنتعجب أني لها أن تكون بهذا الشكل الأملية وفي نفس الوقت تكون مشوشة، أني لها أن تكون فطنة وميالة للانتقام وعدم التصالح في ذات الوقت، حياة يشيد بها النظام التعليمي، ولكنها مهرومة من العالم. نحن على شفى حفرة من الاحتمالات المبهمة، فالحاجة ماسة لمصطلح يلتقط معنى صريحاً وواضحاً، ولا يقل أهمية عن القدرات العقلية.

يمكننا جمع خمسة مهارات إدراكية مميزة تحت عبارة "الذكاء الاجتماعي": فهم الإنسان لذاته (تاريخه النفسي، وأعماله الروحية، وتمكنه من مشاعره ونضجها)؛ المقدرة على الإحساس بالآخرين والتعاطف معهم (بتوفر القدر المطلوب من الصبر والمسامحة والسكينة والإحسان وحسن الظن)، واكتساب موهبة التعامل في العلاقات (بكل ما تتطلبه هذه العلاقات من التواصل واطهار الضعف والكرم والحسن الفكاهي وفهم الرغبات الجنسية وتقديم بعض التنزلات)، وفهم الركائز العاطفية لهذا العالم العملي، والانفتاح على مشاعر الشكر والتقدير مع التكيف مع الألم بما يحفظ الكرامة، والتكيف مع الخسارة والوفاة. أوجه القصور في هذا المقام هي انعدام وجود الإهتمامات الثانوية بكل أسف، فكل شيء يمكن أن يشكل خطأ كارثياً مثل أسوأ الأخطاء التي قد تحصل في المجال المادي أو التقني. تتنازل حياتنا بسهولة عن أبعادها العاطفية كما هو الحال في التأثير الأكبر لاقتصادنا وسياساتنا وحروبنا.

- ذكرت في كتابك "عزاءات الفلسفة" بأن باعة الكتب يملون وجعة قيمة لمن يشعر بالوحدة، أخذاً بعين الاعتبار عدد الكتب التي كتبت لأن مؤلفيها لم يجدوا من يتجاذب أطراف الحديث معهم، فهل يشعر آلان دو بوتون بالوحدة بطريقة ما؟

لعله يوجد عدد من الاعتراضات المسببة للحرج والتي يمكن أن نبوح بها عدا كوننا وحيدين، فالفرضية الأساسية هي أنه لا يوجد شخص محترم قد يشعر بأنه معزول قط، إلا إذا غير بلد أو أصبح أرملاً/أرملة. لكن

هل انتهى حلم السعادة؟



معاب نصر

حققتنا فيها، أو على العكس، نشعر بالغبين والظلم والقسمة غير العادلة إذا لم يصبنا مقدار ما نعتقد أننا نستحق منها. يعيد بوتون قراءة مواقف وآراء عدد من الفلاسفة على مدار التاريخ، وكيف كانت نظرتهم إلى الفلسفة نفسها، أو كيف مارسوها وكيف أيضا كانت رؤيتهم لفكرة السعادة. عن الفيلسوف اليوناني أبيقور يكتب بوتون «كان واجب الفلسفة، وفق أبيقور، مساعدتنا على تأويل نوبات اليأس والرغبة الغامضة التي تعترينا، وبذا نتقذنا من النماذج الخاطئة للسعادة. ينبغي علينا الامتناع عن أي تصرف في النوبات الأولى، لنعمد، بدلا من ذلك، إلى تمحيص عقلانية رغباتنا وفقا لمنهج مساعلة قريب من ذاك الذي استخدمه سقراط في التعريفات الأخلاقية». نظرة أخرى عن نيته، ينقل بوتون وجهة نظر أخرى تربط بين السعادة والمعاناة باعتبارهما شريكين متداخلين «ماذا لو كانت السعادة والتعاسة مرتبطين معا بحيث لا بد لكل من يرغب بامتلاك أكبر قدر ممكن من إحدهما أن يمتلك قدرا مماثلا من الأخرى.. أمامك الخيار: إما أقل تعاسة ممكنة وقدرا من الصبر، أو أكبر تعاسة ممكنة كئيب للإفراط في اللذائذ والمسرات التي نادرا ما يتم التمتع بها؟ لو قررت المضي في الخيار الأول أملا لتقليص مستوى الألم البشري وتخفيفه، يتوجب عليك كذلك تخفيض وتقليص مستوى قدرتها على تحقيق السعادة». ربما كان مفهوم الامتلاك الطاغية في هذا العصر هو نوع من تأمين السعادة وضمانها بعيدا على الخوض في علاقات إنسانية غير مأمونة، ومسببة للإحباط، غير أن الصراع انتقل إلى مكان آخر، حيث يعني المزيد من الامتلاك المزيد أيضا من خوض الصراعات والعمل حث الإنهاك، ما أدى إلى تقسخ الكثير من الروابط الاجتماعية، والشعور الدائم بالعزلة الذي يجري تعويضه، كما لو كنا في دائرة مفرغة، عن طريق الامتلاك. هل تمثل لنا الفلسفة وعمق الفكر وفهم أنفسنا عزاء؟ هل كلمة «العزاء» هي إعلان يائس، ولو بصورة مخففة، عن نهاية حلم السعادة؟ ربما هذا ما يحفزنا كتاب بوتون على تأمله. يتميز الكتاب بالجمع بين الفكرة الفلسفية وحياتنا أصحابها، بين التأمل السريع والمثال الحي ولا يخلو من بعد درامي، مع كثرة الأمثلة والاقتباسات وتنوعها.

الكتاب صادر عن دار التنوير بترجمة يزن الحاج، ويقع في ٣١٨ صفحة.

على النقيض، اعتد المفكرون الغربيون على إلقاء محاضرات يتزاحم فيها حضور المواطنين العاديين الباحثين عن إجابة لأسئلتهم. ولعل فيلسوفا مثيرا للجدل مثل سلافوي جيجيك أن يكون الأشهر الآن، حيث بإمكانك العثور على العديد من محاضراته ومساجلاته العامة عبر اليوتيوب، بالإضافة إلى مقاطع سجلها بنفسه. ألان دو بوتون الكاتب ومقدم البرامج السويسري المقيم في بريطانيا، واحد من هؤلاء الذين يتمتعون بحضور واسع، ربما يعود أيضا إلى خبرته الإعلامية وطريقة عرضه الشيقة، وأمثلته الحية المستلثة من نسيج الحياة اليومية، إضافة إلى طاقته المدهشة. الإنسان في عصر مضطرب تتناول محاضرات دو بوتون غالبا موضوع العلاقات الإنسانية، وهي العلاقات التي تشهد الآن اضطرابا شديدا بسبب من الضغوطات الاقتصادية والنزعة الفردية العالية واتساع ما يبدو أنه أفق للاختيار، مع الخطر الدائم الذي يهدد حياة الناس في العمل والانتقال وصراعات الهوية والثقافة.

ولعل واحدة من أكثر هذه المحاضرات طرافة تلك التي خصصها بوتون عن الحب. في محاضراته تلك ربط بوتون بين مخيالتنا المعاصرة عن الحب وارتباطه بالأعمال الروائية وما قدمته من نماذج. لكن الأهم أنه بحث في الأصول «الرومانسية» لأعراف الحب والزواج التي تعود إلى أصول مسيحية تمت علمنتها برأيه، بحيث صار الحب أيضا نوعا من الخلاص والحرية والمطابقة، والعتور على شريك هو بمنزلة العتور على «توأم الروح». ويدخل في هذا أيضا فكرة الألم والمعاناة الضرورية في الحب، والصدفة الخارقة والتي نسميها «الحب من أول نظرة». قسمة غير عادلة في كتابه «عزاءات الفلسفة.. كيف تساعدنا الفلسفة في الحياة؟» يخفي بوتون، ربما، العنوان الأساسي، وهو هل ثمة طريق إلى السعادة؟ لا يبحث بوتون، على عادة الفلاسفة في «المفهوم» نفسه؛ تاريخه أو تأويله، وهو مفهوم يقع ضمنا وراء بحث الإنسان في كل القضايا المعرفية الأخرى رغم غموضه والتباسه. يتجنب بوتون هذا الوجه الجهم للفلسفة مقدنا نظرتنا نفسها إلى السعادة وتوقعنا لها، ذلك التوقع المبني على أن العالم هو بمنزلة «موزع هدايا»، وهو ما يجعلنا نتوقع نصيبا مفترضا من



ظاهرة تكاد تجهلها تماما أوساط الثقافة العربية، تلك التي تتمثل في المحاضرات العامة الدورية لكبار الكتاب والأكاديميين، والتي تعتمد إلى النقاش وطرح قضايا تجمع بين طابع التخصص والتبسيط بالتماس ما يحياه الناس فعلا من قضايا زمنهم وهمومهم. في أعرافنا لا يحدث هذا إلا في أطر نخوية وقاعات مغلقة يحضرها جمهور كسول غالبا من أجل المجاملة أو انتظار انتقال الميكروفون إليهم.





ألان دو بوتون

manarat

WWW. almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير

عزى ريم

علي

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

الايخارج الفني
علي كاطع

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة (م) للاعلام

والثقافة والفنون

ألان دو بوتون: كيف نجد الهدوء في ظل الجائحة؟

ترجمة: منعم الفيتوري

علينا أن نضيء غرفة الخوف حتى نرى ما بداخلها. إذا كانت هناك فيضانات كيف يمكننا التعامل معها؟ إذا كان هناك وباء، فكيف ندير الوضع؟ إذا تلقينا فحوصات طبية خطيرة، فماذا نفعل بعد ذلك؟ هذا هو جوهر التفكير القوي.

كان الرواقيون قد أطلقوا على النمر الذي جاء لتناول الشاي مع سبق الإصرار والترصد، دراسة سيناريو صعب تم إنشاؤه لليسبب لنا أن الأشياء يمكن أن تحدث، ويمكن لنا النجاة منها. نحن ظالمين عندما نفترض أننا غير قادرين على التعامل مع أي شيء آخر غير السعادة. مثل جميع البشر، أجبرنا على مواجهة التحديات. ومن الأفضل عدم التظاهر بأن الأحداث المخيفة لن تحدث لنا. قد تحدث وقد تدمر كل شيء نحبه في هذه العملية. عندما نكون في حالة خوف فإن أفضل شيء يمكن أن نقوم به هو أن نقضي وقتنا مع الخوف لمبدأ أن الأشياء السيئة يمكن أن تحدث لنا، وعند تحليلها نذكر أنه من المحتمل أن تجلب لنا شيئاً، قد يبدو من بعيد، فظلياً! بعبارة أخرى: أن تعرف أن النمر ستطرق الباب، وستسبب أضراراً جسيمة لنا، وسيختفي بها الأمر إلى المغادرة.

١- التنازل: قبول العجز الجنسي الخاص بك في مواجهة الأحداث. لا تسبح ضد التيار.

٢- الحب: تواصل مع الأشخاص الذين يشعرون بالارتباك والخوف أيضاً، وقم بإنشاء صداقات حول نقاط ضعفهم المشتركة.

٣- التطوع: مقدرتك على المساعدة فيما تستطيع. خذ إجازة من البحث الشاق لتحقيق إنجاز شخصي. كرس نفسك لمهمة مرضية: مساعدة الآخرين.

٤- التشاؤم: ابحث عن سلامة عقلك من خلال عدم انتظار الأفضل وتحليل أسوأ السيناريوهات الممكنة، وقبول قناعتها.

٥- الضحك: اضحك بشكل مأساوي على عبثية الوضع الذي نحن فيه. لا بد من الإصرار على روح الدعابة كمزاج للتحدي.

٦- متعة صغيرة: عش يوماً ما، وفي كل مرة احتفظ بمساحة خاصة للمتعة المتواضعة: شاهد الزهور، تذوق الشوكولاته، استمتع بأشعة الشمس، أو أخبر أصدقائك القدامى بالنكات والكوميديا السوداء.

عندما نكون في حالة قلق، فإن أهم شيء يمنحنا الهدوء هو قبول الإنفعالات التي يمكن أن تكون طبيعية. ومن هنا، يمكن لنا إدارة مشاعرنا بدلاً من إنكارها أو محاربتها. قبل أي شيء، يجب ألا نقلق.

ففي الوقت الحالي سيكون علينا ألا نشعر بالذعر قليلاً. وفي بعض الظروف يكون شعور الخوف علامة على العقلانية، ومع الجائحة فإن ذلك يكفي لتبرير معدل القلق. بمجرد أن ينتهي كل شيء، فإننا سنعود إلى ما كنا عليه قبل الجائحة.

هناك شيء آخر يساعدنا في رفع معنوياتنا إلى حد كبير: الجرأة على الصدق مع الآخرين حيال ما نشعر به. في أغلب الأحيان نحفظ بشجاعة كبيرة، ونقول دائماً أن كل شيء على ما يرام، وأنها بخير. والتفكير بهذه الطريقة نظن أنه يجعلنا محبوبين جداً، لكنه لا يساعدنا على الإطلاق.

أكثر من أي وقت مضى، يجب علينا أن نتوقف عن التباهي بشجاعة مصطنعة، وأن نعترف بأننا نمر بأوقات عصيبة. عندما يسمع الآخرون هذا الشيء، فإنهم سيشفرون فوراً بأنهم ليسوا لوحدهم مع مشاكلهم، وسيكون من المحتمل أن تكون هناك علاقة ممكنة من خلال تجربتنا المشتركة للمعاناة. قد نحظى بإعجاب الآخرين من خلال إقناعهم بقوتنا وحيويتنا. لكننا سنقيم صداقات حقيقية عندما نكون صادقين بشأن نقاط ضعفنا. ولحسن الحظ، فإن الأزمة الراهنة تمنحنا حرية كاملة؛ لنكون أكثر صدقاً بشأن ما نواجهه. أصبحت "تكلفة" الصدق أقل، وخلال ذلك، فإن الفرصة ستكون مثالية لتكون صداقات حقيقية.

عندما يتناوبنا القلق، فمن المعتاد أن يخبرنا الناس بحسن نية أن كل شيء على ما يرام. يعتقدون أنهم لطيفون، ولكن عادة ما يكون هذا النوع من التفاؤل غير مقنع تماماً. في بعض الأحيان يمكن أن يكون القلب من التشاؤم أفضل - وهو ما يجعلنا سعداء أكثر من الإحباط.

في روما القديمة، فإن فلاسفة الرواقية يرون بأن الطريق إلى الهدوء لا يمكن أن يكون عبر الإصرار على غياب الأشياء السيئة. فهي يمكن أن تحدث، بل إنها تحدث في الواقع، طوال الوقت.

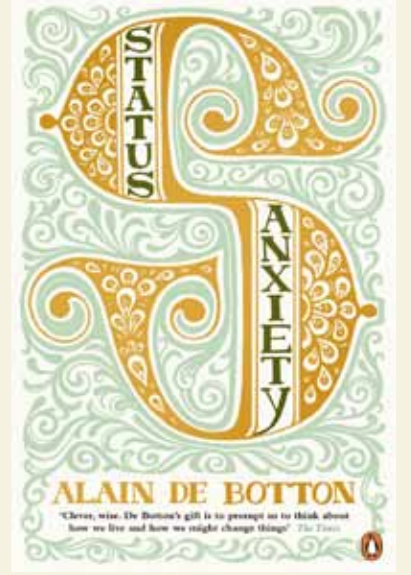
هناك موجات من الجوع والأوبئة والحرائق والحروب. هناك حيوانات خطيرة وأشخاص فظيعون. لكن الرواقيين يصرون على أنه بالرغم من وجود مثل هذه الأشياء أحياناً نود أن نعترف بذلك، فإن أهم شيء، هو قدرتنا على تحملها. فالأخطار يمكن حلها والسيطرة عليها عبر عقولنا. يجب أن لا نقفل أبداً في معرفة مخاوفنا، ولا نتقلها إلى قاع ضمائرنا؛ وهذا ما يعني تسليم اللعبة لهم، والسماح بإزعاجنا إلى الأبد. حتى موتنا يمكننا أن نقيسه، وأن نواجهه شبحه. فكل النهايات ليست سعيدة، وهناك طرق ربما تغلبنا عليها. كتب سينيكا الرواقي المشهور: "لإيجاد الهدوء، علينا أن نتخيل ما يمكن أن يحدث، وليس فقط ما يحدث".

بعبارة أخرى: تخيل الأسوأ، خذ مخاوفك بعيداً إلى أقصى حد، وانظر إلى ما تبقى: يمكن أن يكون الوضع سيئاً، ويمكن قبوله بطريقة الخاصة. وفقاً للرواقيين، حتى نصل للقوة الداخلية، ينبغي ألا نهرب من القلق، و



آلان دوبوتون يدرس تحولات مفهوم المكانة

د



قراءة المراحل التي مرت بها المفاهيم الفلسفية على ضوء تطورات الحياة، والتقلبات التي تشهدها تركيبة المجتمعات، تضعك في قلب العلاقة الجدلية القائمة بين الفكر وواقع المجتمع. وهذا ما يشغل عليه الكاتب البريطاني المقيم في سويسرا آلان دوبوتون، الذي يتناول جملة من المسائل الحياتية في مؤلفاته، ساعيا للربط بين ما حفظته المدونات الفلسفية وما تفرّضه وتيرة تطور الحضارة.

«

كه يلان محمد

إذ يناقش في مؤلفه الجديد «قلق السعي إلى المكانة»، علي غرار ما عمله في «عزاءات الفلسفة» و«كيف يُمكن لبروست أن يغير حياتك»، هاجسا إنسانيا آخر بناء على رؤية كوكبية من الفلاسفة والمفكرين على امتداد العصور، وهو مفهوم المكانة وما تعنيه نظرة الآخر في تحديد موقع الذات، ودورها في سلم التراتبية الاجتماعية، ناهيك عن علاقة الإنسان مع نفسه وقدره لوظيفته في ظل مُحددات اجتماعية لحالات النجاح والفشل. بعد تعريف المكانة ومعنى المفردة في أصلها اللاتيني، وما تشير إليه داخل سياقات تداولية، يؤكد آلان دوبوتون على حساسية ما يسميه بقلق المكانة ومخاوف الإنسان من الفشل، وما يتبعه من فقدان القيمة على الصعيد الاجتماعي، ويورد في هذا الإطار رأي وليم جيمس بشأن تطلعات الفرد لكسب اهتمام الجماعة، والشعور بالإحباط الذي يخلّفه تجاهل الآخرين لوجود الفرد وكيانه. يصف صاحب (معنى الحقيقة) ذلك التصرف بعقاب شيطاني، نظرا للخيبة الناجمة من الإهمال وعدم التقدير لدى المرء.

المؤثرات والقلق

حسبما يقدمه الكاتب فإن المؤثرات التي تسبب الشعور بالقلق تنوزع بين المادية والعاطفية. ويبدو أن القلق بشأن المكانة قد تضاعف في عصر الحديث نتيجة مقارنة الفرد لحالته، مع ما عليه غيره وما يمتلكه، وتطلعه لامتلاك أكثر. ومن ثمّ يرصد المظاهر المادية للتحوّل الاقتصادي الكبير الذي بدأ من بريطانيا وامتد إلى بقية البلدان الأوروبية الأخرى، وانعكاس ذلك على القيم الاجتماعية، وما يرسم مكانة الفرد وعلاقته بالذات والآخر في الوقت نفسه.

التكاملية

يعالج آلان دوبوتون موضوعاته الأثيرة وفقا لمنهج تكاملي، بعيدا عن المقاربات المتسرة، حيث يربط بين مفهوم المكانة والأبعاد الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، مستندا إلى الإحصائيات الدقيقة لدعم آرائه، كما يفتتح على روافد فلسفية متنوعة، مُحافظا على حيادته بين تيارات مُتصارعة، فهو لا يُمانع في أن يجمع بين نضائج المسيح وتفسيرات كارل ماركس لطبيعة النظام الرأسمالي. ولا يكتفي بإيراد ما توصل إليه مشاهير الفكر والفن بشأن معطيات حياتية، إنما يُفضل إظهار بوابر التحوّل في الواقع وما يحمله ذلك من عوامل مؤثرة على المذاقات والسلوكيات. فوق هذا فإن آفاق التحولات لا تلوح فقط على المستوى الفكري والسياسي، بل ما تعتبره بسيطا قد لا يخلو من دلالات مؤشرة إلى التغيير، فيما كانت الموضوعات تظل ثابتة لعشرات الأعوام، على حد قول الكاتب، لكن مع بدء العصر الصناعي يتبدل الأمر فتُصبح الموضوعات متغيرة في كل سنة، كما أن البضائع والسلع المحصورة في طبقة معينة صارت في متناول الجميع، ويأتي كل ذلك مترامنا مع توسع الأسواق وفتح عدد كبير من المتاجر، ولاحظ دانيال ديفو أثناء تجوله في بريطانيا ازدياد متاجر جديدة بواجهات جذابة بالطبع فإن هذا التطور المادي يغذي الرغبة الاستهلاكية، فضلا عما يُحدثه من التحوّل في مفهوم المكانة بمجرد العودة إلى ما كان عليه الحال بين ١٣٠٠ - ١٦٦٠ حيث لم يتبدل شكل المحرّات في عموم أوروبا، يتبين الإيقاع البطيء للحياة، بخلاف المرحلة التي تشهد فيها القارة الأوروبية تطورا هائلا بتأثير العوامل الفكرية والاقتصادية.

من هنا يكون الأجر الذي يُدفع للعامل شأنه (شأن الزيت الذي يوضع للعجلات لكي تواصل دورانها، ولم يعد الهدف الحقيقي من العمل هو الإنسان، بل المال) على حد تعبير ماركس. ما يعني أن المال تحول إلى مؤشر سلمي للشخصية، وبدأت بموازاة ذلك محاولات فكرية مسوغة، لتغول العملة وتساعد الرغبة للريح، لعل ما ذهب إليه برنارد ماندفيل عن تهمين دور الأغنياء بوصفهم مُساهمين في تقدم المجتمع بما يوفر من فرص العمل بتفقاتهم الطائلة، مُغايير لما ساد من الاعتقاد بأن الثراء والفقر ليسا معيارا دقيقا للصلاح الأخلاقي، لأنّ الأثرياء هم أكثر سموا وفضيلة ولم يكونوا من طبقة الأثرياء. والنموذج المقتدى آنذاك هو المسيح.

مبدأ الكفاءة

يعزّو جان جاك روسو علة التفاوت الطبقي المصاحب بالقلق على المكانة إلى شيوع الإقطاعية وحب التملك. ويرى آدم سميث فوائده في الممتلكات الضخمة مبديا اعترضه على أن تراكم الثروة نتيجة للاستغلال، وأن تشعب الأثرياء يكون على حساب الفقراء، يمضي توماس بيبي، أبعد عندما يريد إثبات أن تعاليم الإنجيل تحبذ الفراء. وتواصلت المحاولات في أمريكا للتكريس بين المال وإلخلاق الرفيع. كما تمّ الاحتفاء بأراء سبنسر المحففة بحق الفقراء في أرض الأحلام.

إضافة إلى تقديم المحاججات بين الفلاسفة حول محور الكتاب يتتبع المؤلف مراحل حلول الكفاءة مكان الاعتبار الأسرية، إذ لم تُعدّ المكانة تورث جيلا وراء جيل، بل تُصنّع بفعل مبدأ الكفاءة والموهبة وظهرت الكفاءة الأرستقراطية. يقول نابليون بونابرت «لقد اتخذت مُعظم قادتي من وحل الأرض، كلما عثرت على موهبة أكافئها بما تستحق». ومن جانبه أبدى الفيلسوف الإنكليزي توماس هوبز تبرمه من ظاهرة توارث السلطة والمكانة، مقتنعا بأن ذلك ليس أقل مدعاة للسخرية ممن يطالب بتوريث موهبة التأليف والرسم والهندسة لابنه.

رهانات بديلة

قد يثير ما قدم أعلاه سؤالاً حول البديل في ظل هيمنة العقلية الوظيفية، هل الإنسان بات مُحكوما بين خيارين لا ثالث لهما، إما أن ينصب كل اهتمامه على ما يتطلبه نظام السوق، وبالتالي يكون شخصا ناجحا ويكتسب تقدير الأخر، أو يسير مخالفا لما تفرّضه القيم السائدة، وهي تمثّل أيديولوجيا الطبقة الحاكمة، بدون أن يتخلص من الشعور بالإحباط؟ أين موقع الفلسفة والفن والأدب؟ هل يختفي أثر كل ذلك في موجة أسواق البورصة وعملية سلعة اهتمامات الإنسان؟ هل من سبيل لاكتساب المنفعة في هذا المناخ المتوتر؟ هنا يذكر آلان دوبوتون موقف نخبة من الفلاسفة والأدباء الذين اختاروا نمط حياتهم بعيدا عن عوامل خارجية، منهم سقراط الذي لم يتأثر عندما بلغ بأن أهل أثينا يطلقون عليه القابا مهينة، كما يشير إلى رد دوجين حين يسأله الأسكندر المقدوني عما يحتاج إليه؟ فما كان من الفيلسوف إلا أن قال «تساعدني لو ابتعدت قليلا فأنت تحجب عني الشمس»، ويضيف في هذا الصدد رأي الإمبراطور والفيلسوف ماركوس أوريلوس، حيث يعتقد أن لياقة المرء ودمائه لا تعتمدان على شهادة شخص آخر لصالحه. كما يؤكد فولتير من جانبه على أن الأرض تكتظ بأشخاص لا يستحقون التحدث إليهم. ويأتي رأي شوبنهاور أكثر حدة يرى صاحب «العالم إرادة وتمنلا» بأنه

لا يوجد في هذا العالم إلا الاختيار ما بين الوحدة والابتدال.

إلى جانب ذلك فإن الأعمال الفنية والأدبية مهمة تتمثل في تصحيح بعض تصوراتنا إذ يقول جورج إيوت «إن لم يوسع الفن حدود التعاطف الإنساني فلا نفع له من الناحية الأخلاقية». يشار إلى أن وجود صور للوحات الرسامين مثل باتيست شاردان وكريستين كوكبه وتوماس جونز مرفقا بتعليقات ضمن الكتاب، يوحي بضرورة التثقيف البصري وإدراك دلالة اللون ومكونات اللوحة. عطا على ما سبق يتوقف المؤلف عند موقف فيرجينيا وولف حين لم يُسمح لها بالدخول إلى المكتبة العامة، بدلا من أن تحصل نفسها مسؤولية هذا التصرف، بدأت بطرح الأسئلة حول طبيعة النظام الذي يفرق بين الرجل والمرأة.

وفي الفصل الأخير يلتفت الكاتب إلى جماعة البوهيميين المناهضة للثقافة البورجوازية السائدة، التي تعتبر أن الفشل في أي مجال يرتقي إلى مستوى إداة جسمية لطبيعة الشخص المعني به. وبعض من هؤلاء مثل دي نرفال انتحروا احتجاجا على تضخم الماديات والتزييف الاجتماعي، وما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام أن القارئ قد لا يتفق مع كل ما ورد بين دفتي هذا الكتاب، غير أنه يتفهم بعض أسباب القلق الذي يساور الإنسان في عصر التقدم التكنولوجي وسيادة الرؤية الغائمة.

